مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الحياة
التاريخ: ١٩٩٩/٩/٢٢

ذكرياتي عن أنور السادات: زيارات رسمية تبرز مزاجية وحسن استماع

حسين احمد أمين *

■ في منتصف اذار (مارس) ١٩٦٧، وكنت وقتها أعمل سكرتيراً ثانياً في السفارة المصرية في موسكو، بدأت وزوجتي اجازة طويلة، زرنا خلالها الاقصر واسوان فانكلترا فالدنمارك فالسويد. وعدنا الى موسكو في اول أيار (مايو) وقد بلغ منا تعب السفر مبلغه، وما إن ادخلت الحقائب الشقة، حتى دق جرس الهاتف، وكان المتحدث السفير مراد غالب:

«انا اعلم انك وصلتَ لتوك الى موسكو، غير أن عليك ان تجهز حقيبتك الآن وتستعد للسفر هذا المساء مع انور السادات والوفد المرافق له من اعضاء مجلس الأمة المصري الى لينينغراد، فكوريا الشمالية فمنغوليا فإيركوتسك في سيبيريا. سنسافر جميعنا الليلة بالقطار الى لينينغراد، ثم ننقسم مساء الغد الى فريقين، فريق يضم السادات وتكون أنت معهم في رحلة الشرق الاقصى، وفريق يضم المهندس ابراهيم شكري ويزور بعض الجمهوريات الاسلامية السوفياتية. وسيكون عليكم تسهيل مهمة الوفد، والترجمة من الروسية الى العربية ومن العربية الى الروسية عند الحاجة، والمشاركة في إعداد البيانات المشتركة بعد كل زيارة، وترجمة خطب السادات التي يعدها عبدالسلام الزيات من العربية الى الانكليزية. وعليك الآن ان تاتي الى فندق سوفييتسكايا بعد ساعة ونصف الساعة لأعرّفك بالسادات، ولتعدّ الترجمة الانكليزية للخطاب الذي سيلقيه مساء غد في حفلة عشاء يقيمها عمدة لينينغراد لنا!

كان السادات كثيراً ما يشير في احاديثه الصحافية التي تتناول مرحلة شبابه وتكوينه الذهني، الى فضل كتب أبي (أحمد أمين) على هذا التكوين، خصوصا كتاب «فيض الخاطر» الذي كان السادات يسميه خطأ «خواطر»! وقد اكثر من هذه الاشارات لدرجة أحرجتني، وحدثت ببعض اصدقائي الى سؤالي مازحين «قد كان أبوك إذن المسؤول عن تكوين ذهن هذا الرجل!!».

وقص عليّ أخي الاكبر عبدالحميد كيف ان السادات في شبابه الاول طلب من صديق له يسكن قبالتنا في مصر الجديدة أن يرجو اباه أن يتوسط له لدى والدي حتى يقبله طالباً في كلية الآداب، وأن أبي اشترط مقابلته قبل ان يتخذ قراراً بصدده، فجاء السادات الى بيتنا، وانحنى يقبّل يد أبي، مبدياً إعجابه العظيم بكتبه، ويرجوه قبول طلبه، فما قبل والدي الطلب حتى غير السادات رأيه والتحق بالكلية الحربية!.

لهذا كله انتابتني الدهشة حين دلفت الى غرفة السادات في فندق «سوفييتسكايا» وعرّفه السفير مراد غالب بي، ذاكراً أنني ابن أحمد أمين، إذ أرى وجهه خالياً من اي تعبير وكانما لم يسمع بوالدي من قبل، ولا هو اشار في احاديثه معي طوال الرحلة بعد ذلك اية اشارة إلى أبي او كتبه، على رغم اني كنت طوال الاسبوعين التاليين اتناول إلى مائدته يوميا طعام الافطار والغداء والعشاء وأصحبه في جولاته ولقاءاته كافة، وهو امر لم أجد له حتى اليوم تفسيراً.

وصل القطار بنا الى لينينغراد في الثامنة من صباح الثاني من أيار وكان المقرر في برنامجنا ان نتوجه بعد الغداء في الفندق الذي نقيم فيه، الى متحف «الإرميتاج» وهو ثاني او ثالث اعظم متاحف الفن في العالم، حيث ينتظرنا ليطوف بنا في انحائه مدير

المتحف نفسه، وهو عضو في اكاديمية العلوم، وشخصية لها مكانتها الرفيعة في الاتحاد السوفياتي. فما انتهينا من تناول الغداء في قاعة الطعام حتى تمطّى السادات وتثاءب بصوت مسموع، ثم قال لنا:

«شوفوا يا ولادي. أنا راجل ماليش في المتاحف والفن والكلام ده، ولازم أنام الضَهر. روحوا أنتم وأنا طالع أستريح!!».

ثم قام ومضى. فما اغلق الباب خلفه حتى تصايح اعضاء وفد مجلس الأمة: «متحف إيه وقرف ايه؟ إحنا نروح نشتري لنا كريستال ونلف على المحلات. بيقولوا عندهم هنا في لينينغراد كريستالات تجنّن».

وكانت النتيجة أن كنت وابراهيم شكري الوحيدين اللذين حرصا على زيارة «الإرميتاج». كان في انتظارنا خارج الفندق لتوصيل اعضاء الوفد الى هناك ١٣ سيارة حكومية. ركبتُ وشكري واحدة، وركب الباقون السيارات الاخرى للطواف وأداء فريضة المشتريات. وقد وجدنا مدير «الإرميتاج» واقفاً عند المدخل الرئيسي للمتحف في انتظار النواب الموقّرين، فما ان ادرك انه لم يأت غير اثنين حتى لوّح بذراعه في قرف تاركاً إياي وشكري في رعاية احدى مرشدات المتحف.

استغرقت رحلة الطائرة السوفياتية الخاصة التي اقلتنا الى بيونغ يانغ، عاصمة كوريا الشمالية، اثنتي عشرة ساعة. وكانت اقامتنا في قصر الضيافة، خصصت لكل منا حجرة في مساحة شقة، تطل على حديقة غنّاء، ولها حمام يمكن للمرء فيه ممارسة لعبة «الباتيناج»، وقد ملأوا الرف فيه بزجاجات الكولونيا ومعجون الاسنان وفرشاتها، وزودوا الغرفة بطبق عظيم

يحوي مختلف صنوف الفاكهة، وآخر به الشيكولاته وغيرها من الحلوى، وبعلبة سيجار وعلبة سجائر فاخرتين، وعلى السرير «روب دوشامبر» و«بيجاما» من الحرير، وبجواره (نعل)، مع زجاجات مشروب «الجينسينغ» وباقة رائعة من الازهار على مائدة مستديرة وسط الغرفة، بجانبها بطاقة تتمنى لنا باللغتين الكورية والعربية اقامة سعيدة في بلد الزعيم القائد الخالد الذكر كيم ايل سونغ.

لم يخطرونا سلفاً بان القائد الخالد يعتزم استقبالنا، غير انه كان طوال زيارتنا ماثلاً أمام اعيننا في كل مكان: تماثيله وصوره تطل علينا في كل شارع ومبنى، والاغاني في الاذاعة تلهج بذكره، والصحف كافة تحمل صورته في الصفحة الاولى، ونشرات الاخبار تبدأ بتحركاته وزياراته لهذه الجهة او تلك، والافلام السينمائية إما عن طفولة القائد، او والدة القائد. او كفاح القائد، فإن زرنا مصنعاً للنسيج او الزجاج او حتى بطاريات السيارات، إذا بكل آلة من آلات المصنع وعليها

لوحتان نحاسيتان: الاولى «أمر الزعيم بصنع هذه الآلة يوم كذا»، والثانية «تم تنفيذ امر الزعيم يوم كذا»! وإذ نعود في يوم ٦ أيار من زيارة في الصباح الباكر للمعرض الصناعي الزراعي، إذا بجماعة من الكوريين تستقبلنا في قصر الضيافة لتزف الينا، والابتسامات وإمارات السعادة تملأ الوجوه وكانما يبشروننا بالجنة، نبأ استعداد كيم ايل سونغ لاستقبالنا قبل الظهر، ودعوته إيانا لتناول طعام الغداء معه.

وكان أن التقينا الزعيم الكوري لمدة اربع ساعات، تطرق في الدقائق الاولى منها الى العلاقات الكورية - المصرية الممتازة، وكفاح الشعبين العظيمين من أجل كذا وكذا، والتقدير العميق الذي تكنه القيادة والشعب في كوريا

للرئيس جمال عبدالناصر، سرعان ما انتقل بعدها الى حديث طويل جداً عن سوء نيات الاتحاد السوفياتي، وضرورة التنبه لأغراضه الخبيثة في منطقة الشرق الاوسط، وما عانته الصين الشعبية وكوريا الشمالية من خياناته المتكررة لقضاياهما، وتخليه عن الكوريين ابان كفاحهم وحربهم من أجل توحيد شطري كوريا في مطلع الخمسينات، منهياً حديثه بتحذير رجا السادات ان ينقله الى عبد الناصر عند عودته الى مصر من ان يزيد من اعتماده على الروس الخونة ومن ان يصدق وعودهم ويأمن الى نياتهم.

ويهمني هنا ان اسجل ملاحظتين لي بصدد انور السادات:

الاولى: حسن استماعه الى من يحدّثه من الزعماء او كبار المسؤولين، وقدرته على الايحاء اليه بأنه يوافقه بشدة، وبكل اخلاص وصدق، على كل كلمة يقولها، وكل رأي يعرضه.. فهو لا يكف عن هز رأسه مؤمناً ومردداً بصوته العميق: «فيري ترو» (صحيح). ولو ان كيم ايل سونغ، بدلاً من مهاجمته للروس، كان اثنى عليهم ثناء حاراً، وأوصى بتصديق نياتهم وتعزيز التعاون معهم، لكان السادات أمن بكل حرارة على اقواله، وهز رأسه مرارا اشارة الى موافقته التامة!

والثانية: رفع زملائه من اعضاء مجلس الامة الكلفة معه، وحديثهم الصريح والودي اليه، وعدم خشيتهم اياه، من دون ان ينتقص ذلك من احترامهم له، يضاحكونه ويمازحونه فيهشّ هو ويبشّ في وجوههم، ولكن في وقار جم. وقد سمعته في الطائرة الى بيونغ يانغ يوبخهم على انتهازهم فرصة صعوده الى غرفته في الفندق في لينينغراد للنوم وإغفالهم زيارة متحف «الارميتاج» مفضلين التسوق، فأجابوه

صائحين: «لا يا ريس موش كل مرة! (كانوا ينادونه بالريس لرئاسته لمجلس الأمة)، احنا طلعنا الحج معاك معرفناش نشتري حاجة من السعودية، خلينا المرة دي على الأقل نرجع مصر بحاجة».

كذلك فإنه ما ان غادرت الطائرة مطار بيونغ يانغ في طريقها الى اولان باتور، عاصمة منغوليا، حتى شرع النواب الموقرون في فتح حقائب اليد معهم يخرجون منها ضاحكين، النعال والارواب والبيجامات الحريرية وغير ذلك مما كان الكوريون زودوا حجراتهم به في قصر الضيافة للاستعمال فقط لا للمصادرة! واذ رأى السادات ما يفعلون ابتسم لهم، وشرع في ممازحتهم، ملقباً اياهم بـ«اولاد الحرامية»!

قفلنا عائدين الى موسكو بعد الرحلة الى كوريا الشمالية فمنغوليا فسيبيريا، فوصلنا اليها في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ١٢ أيار ١٩٦٧. توقفت الطائرة، وفتح بابها للنزول منها، فلمحتُ من فوري عند اسفل سلمها في انتظارنا ثلاثة من كبار المسؤولين السوفيات يصحبهم احد المترجمين، وما ان صافحوا السادات حتى انتحوا به جانبا لمدة طويلة، وراحوا يتحدثون اليه في جدية شديدة خمنتُ معها وانا ارقبهم من بعد ان أمراً خطيرا قد حدث. فلما فرغوا أشار اليّ السادات أن أقترب، وهمس في اذني ان أتوجه الى السفارة على الفور، وان أبعث ببرقية رمزية على لسانه الى الرئيس جمال عبد الناصر، مفادها ان المسؤولين السوفيات اخبروه عند وصوله بأن اسرائيل تحشد قوات عسكرية كبيرة لها عند الحدود السورية، وان على مصر ان تتخذ من الاجراءات ما يقتضيه هذا الوضع.

ارسلت تلك البرقية التي اعتبرها - على نحو ما - البداية الحقيقية لحرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧. وفي صبيحة

يوم الاحد ١٤ أيار غادر السادات ووفده موسكو الى القاهرة، فكان توديعي له في المطار آخر مرة اقابله فيها، ثم توالت الأيام وتولى رئاسة الجمهورية في ١٩٧٠، وظل يكرر وهو في أحاديثه التلفزيونية مع المذيعة همت مصطفى ذكر تاثير كتب أحمد أمين (الله يرحمه) في تكوينه، خصوصا كتابه «خواطر»؛ وفي أب (اغسطس) ١٩٨١، وكنت وقتها وزيراً مفوضا في السفارة المصرية في بون، أخطرتنا الرئاسة في القاهرة ان السيدة جيهان السادات تنوي زيارة العاصمة الالمانية يوم ٩ تشرين الاول (اكتوبر) لجمع التبرعات من رجال الاعمال الالمان لجمعية «الوفاء والامل» التي تديرها، غير ان القدر لم يتح الفرصة لإتمام هذه الزيارة.

في يوم ٥ تشرين الاول، كنت اتناول العشاء في مطعم يوناني في بون مع صديق قديم لي هو السفير حسان عبدالحميد العبادي الذي قدم الى بون (مدينته المفضلة) في طريقه لاستلام عمله قنصلاً عاماً في نيويورك، وفي حديثنا اثناء العشاء تطرقنا الى الاحوال المتردية في مصر، وأنباء الاعتقالات الواسعة النطاق التي تجري فيها، واذ عبرت لحسان عن اعتقادي ان السادات لا يمكن ان يستمر طويلاً في الحكم، أجابني في سخرية ومرارة: «بل سيبقى وسيبقى حتى يدفننا جميعاً وأكون أنا وأنت قد صرنا في الهالكين».

- تراهن؟

- اراهن.

وفي اليوم التالي، في الساعة نفسها التي كان حسان العبادي ينهي اجراءات سفره الى نيويورك في مطار بون، جاءتني في مكتبي في السفارة مكالمة هاتفية من مستشارنا الاعلامي حمدي عزام يخبرني بنبأ اغتيال السادات.